سرّ الإثم في خدمة سرّ الخلاص!

السّبت القادم علينا، بإذن الله، الثّالث عشر من تشرين الثّاني، يصادف عيد القدّيس يوحنّا الذّهبيّ الفمّ.

هذا راعٍ صالح مرسَلٌ من الرّاعي الصّالح. يستفقدنا الرّبّ الإله برعاة أخصّاء لنتعزّى ونتشدّد ونتقوّى ونتعلّم. ولكنْ ليس دائمًا. على أنّ الرّاعي، في الحقيقة، باقٍ، هنا، في كلّ حال، الرّبّ يسوع المسيح. مَن قال إنّه يكون معنا، كلّ الأيّام، إلى منتهى الدّهر هو إيّاه الكائن والّذي كان وسيبقى راعي الخراف. بغضّ النّظر عن هويّة الرّعاة الّذين يتولّون رعيّة المسيح، يبقى يسوع، شخصيًّا، هو الرّاعي الدّائم، المهتمّ بخرافه كلّها، واحدًا واحدًا، من خلال الرّعاة ومن دونهم. هناك رعاة من فوق متى طالعونا طالعنا فيهم الرّاعي الصّالح الّذي هو فوق وهنا في آن معًا، وهناك، أيضًا، رعاة ليسوا من فوق ولا إلى فوق، تختارهم أهواء النّاس ويسلكون في أهوائهم الخاصّة. هؤلاء، أيضًا، يتولّون قطيع المسيح باسمه، بسماح منه، ولو كانوا أدنى إلى الأجراء أو إلى الذّئاب منهم إلى الرّعاة. يعرقلون عمل يسوع إلى حين ولكنّهم أعجز من أن يعطّلوه. غير أنّ ما يسيئون فيه بشريًّا إلى عمل الله يجعله الرّاعي الصّالح لخير الّذين يلتمسون وجه ربّهم، مهما كان، بطرق نعرفها وأخرى لا نعرفها. على أنّ السّؤال يبقى: لماذا يسمح الرّبّ الإله لأمثال هؤلاء بأن يتولّوا خرافه وقطعانه؟ هنا، بالضّبط، يكمن سرّ الإثم المسخَّر لخدمة سرّ الخلاص!

السّرّ، من جهة الخلاص، هو الكيفيّة الّتي يعمل فيها الرّبّ الإله، بما يفوق مدارك النّاس. والسّرّ، من جهة الإثم، هو الكيفيّة الّتي يعمل فيها الشّيطان، بما يتمّ في الخفاء عن عيون البشر، لكنّه مكشوف لعينيّ الله. وما كان الإثم ليكون لو لم يسمح الرّبّ الإله به، من حيث هو الضّابط الكلّ، ولو لم يجعله في خدمة الخلاص، باعتبار حال البشريّة بعد السّقوط، بتحويله إلى علاج، كما سُمّ الحيّة يستحيل، على أيدي الأطبّاء المهرة، دواء.

لا شكّ أنّ الرّبّ الإله لم يستأصل الإثم من العالم بموته وقيامته. لو كان قد فعل لما كان قضاءٌ على الإثم بل تواترٌ له إلى الأبد، لأنّ الإثم مصدره، بعد إبليس، قلب الإنسان، والقلب الّذي لا يرتدّ عن الإثم لا يرتدّ الإثم عنه، ومن ثمّ عن العالم. هكذا خلق الرّبّ الإله الإنسان: قابلاً للإثم إذا ما شاء، لأنّه لا قيمة لإقبال الإنسان إلى الله، بالمحبّة، ما لم يكن له أن يُقبل عنه، بالإثم، ولمّا يشأْ. لذا كان الخلاص نعمة من فوق ولكن ليس من دون اقتبال الإنسان له عن إرادة وتعاون. فإمّا أن يتّخذ كلمةَ الخلاص ويسلك فيها بنعمة الله حتّى تفعل فيه النّعمة وتبلِّغَه مثالَ ربّه، فيصيرَ إلهًا بالنّعمة من الإله بالطّبيعة، وإمّا يرتدّ الإثمُ على الإنسان من فِعل إرادةِ قلبٍ إلى

منخسٍ مؤدّبٍ يردعه، بالألم، ويتوبّه، إذ يختبر أذى الإثم وفراغه وكِذبته وبشاعتَه، فيرتدّ، صونًا لذاته، وبعون الله، إلى ما هو بخلاف الإثم حتّى لا يموت في خطيئته يائسًا. النّعمة المؤازِرة، على هذا الصّعيد، تفتح عينيه، بمقدار ما هو قابل ومهيّأ لذلك. والنّعمة، أيضًا، تسري فيه إحساسًا ومعاينةً لخنزيريّة المسرى الّذي سبق له أن سلك فيه. المعاناة الدّاخليّة، في كلّ ذلك، تدفعه ولو بعد حين، إلى الصّحو والاتّضاع والتّوبة فيلوذ بربّه موجوعًا ومذلولاً. فإن لم يردعه الألم لا تبقى له غير لحظات ما قبل الموت. الضّعف الأقصى آخر الفرصة لنخس القلب، والرّبّ سمّاعٌ طفْرَة الكبد، أو يموتُ الإنسانُ في خطيئته.

الإثم كان ولا زال موجودًا وفاعلاً، وهو باق إلى أن يرسل الرّبّ "ملائكته ببوق عظيم الصّوت فيجمعون مختاريه من الأربع الرّياح من أقصاء السّموات إلى أقصائها" (مت 24: 31). لذا كان يهوذا الإسخريوطيّ ضمن حلقة تلاميذ الرّبّ يسوع. كان يسوع يعرف، تمامًا، ما في قلب يهوذا، وما هو آيل إليه وما استغنى عنه. يسوع اختاره، أيضًا، إكبارًا للحرّيّة الّتي بثّها في الطّبيعة البشريّة؛ فالحرّيّة، وإن كان غَثّ الإثم يمكن أن يُولد من حشاها، فثمين المحبّة أيضًا. خيار المثمّنات منطوٍ، أبدًا، على مجازفة الوقوع في الأدناس وإلاّ لا تكون مثمّنات. كان لا بدّ من يهوذا إسخريوطيّ، في غربة الإنسان، إذ لولاه ما كان صليب ولا كانت، من ثمّ، قيامة. ذاك كان مفترَضًا به أن يكون رسولاً وراعيًا لو اقتبل، وكان له أن يقتبل لو أراد. طبعًا نشتهي لو يكون كلّ الرّعاة، في كنيسة المسيح، في كلّ زمان ومكان، صالحين، ولكن ليس هذا واقعيًّا. لا يمكن إلاّ أن يكون هناك رعاة فاسدون. غير أنّ هؤلاء، من حيث لا يشاؤون ولا يدرون، يستدعون نعمة الله على الخراف بزيادة، إذ "حيثما كثُرت الخطيئة ازدادت النّعمة جدًّا" (رو 5: 20). إذًا تبقى الخراف في مأمن رغم كلّ شيء، وتزداد نعمة فوق نعمة إن لازمت راعي النّفوسِ والأجساد. لا يشاؤنا الرّبّ الإله أن نتعلّق بالنّاس، لا أن نتعاطى الرّعاة الصّالحين كأصنام، ولا أن نتعاطى الفاسدين يائسين. "هوذا الإنسان"! لا يشاؤنا أن نتعلّق إلاّ به. هو الفاعل من خلال خِرافيّة النّاس وخِرافيّة الرّعاة، ومن خلال أهوائهم وذئبيّتهم أيضًا!

طبعًا، الضّعفاء يعثرون. لذا، كان على الأقوياء أن يشدّدوهم، دائمًا، حتّى يبقى وجه العليّ وحدهُ الملتمَس. "كن ساهرًا وشدّد ما بقي" (رؤ 3: 2). "متى رجعت ثبّت إخوتك" (لو 22: 32). بالصّبر والاتّضاع، بالألم والمعاناة، بالصّليب يأتي الفرح إلى كلّ العالم، يعزّي السّيّدُ النّفوسَ ويشدّد الرّكب المخلّعة. يظنّون أنّ الرّعاة الأهوائيّين الذّئبيّين يُفسدون كنيسة المسيح ويقوّضونها وما يقدرون. يسمح الرّبّ الإله لعبيثيّة الرّعاة أن تعيث فسادًا ظاهريًّا في الكنيسة، ولكنْ إلى حين، وعن تدبير، إذ القصد، في المستوى الرّوحيّ، الغربلة. لِمَ سَمَح العليّ للشّيطان بإعثار النّاس؟ لا لأنّه سيّب خرافه. هذه بَذَل دمه لأجلها! ضنينٌ الله بكلّ خروف، بكلّ شعرة في رؤوس أحبّته. هو الضّابط الكلّ وليس لأحد أن يخطف من يده شيئًا (يو 10: 28) مهما ظنّ ومهما حاول. هو حافظُنا والآخذُ الحكماءَ بمكرهم! بل ما يظنّه الأشرار مبذولاً لأهوائهم آيل، لا محالة، إلى تنقية الكنيسة وتقديس المؤمنين. لولا تجارب إبليس لما خَلُصت نفسٌ، ولولا الرّعاة الظّالمين ما انشدّت الخرافُ إلى راعيها الأوّل والأخير بالحقّ.

يرعانا الرّبّ الإله بطرق شتّى، بالاهتمام المباشر، بالتّعزيات متى تجرّحت النّفوس وتقرّحت إذا ما ثبتت في الإيمان، ويرعاها بالصّمت والإعراض حتّى تصرخ وتصبر وتثبت وتتنقّى. المراد أن نجاهد في كلّ حال. كذلك يرعانا السّيّد الإله بتسليمنا إلى رعاةِ "فرعون" فيُساءُ إلينا ونُهان ونعطش ونجوع، فنعلم أنّ الخلاص بالإنسان باطل، ونضع قلوبنا فوق، جاعلين رجاءنا في راعي نفوسنا وحده. "كلّ شيء يعمل معًا للخير للّذين يحبّون الله". "بصبركم تقتنون نفوسكم". في كلّ حال، لسنا بمتروكين. يأتينا في ساعة لا نظنّها. يقلب الطّاولات! يغيِّر الأحوال! "رأيت الشّرّير معتزًّا متشامخًا مثل أرز لبنان، ثمّ اجتزت فلم يكن ولم يوجد له مكان".

لا خوف، إطلاقًا، على كنيسة المسيح، من الّذين يدخلونها خلسة ويجعلونها مطيّة لأهوائهم. الله لا يُشمَخ عليه! يلحسون دماءهم، ولا يلوّثون جسد المسيح، طالما يتذرّع المؤمنون بالصّبر والدّمع والثّبات! أزمنة الشّدّة خير من أزمنة اليسر، لأنّ اليسر وإن عزّى فإنّ فيه خطرَ رخاوة النّفس، أمّا الشّدّة، فإنّها وإن آلمت فإنّها تؤمِّن، بالتّمنطق بروح القوّة، مَن يُلحّون على ربّهم ولا يغادرونه. يعرف الرّبّ الإله الّذين له، والّذين ليسوا له يرسل لهم القحط لأنّه يشاء لهم اليباس. "كلّ زرع لم يزرعه الآب السّماويّ يُقلَع". الله متطلّب، الحبّ متطلّب، الإيمان متطلّب! "مخيف الوقوع بين يدي الله الحيّ"! إلهٌ غيور هو! يطلب كلّ القلب وكلّ الإنسان. لا يطلب شيئًا من الإنسان. لذا يشدّد الّذين هم في حاجة إلى تشديد، أمّا المتوانون فيعرّضهم لجلد الأثمة حتّى يخرجوا من توانيهم أو... يزولوا! بابل لا بدّ منها والمعاناة!

ولكن نحن لا نُسيِّب كنيسة المسيح في الشّدّة. شهودًا للحقّ نبقى. لا نغترّ ولا نستسلم للخوف واليأس سواء بسواء. لو كانت الكنيسة قائمة على حكمة حكماء هذا الدّهر الّذين يتولّون كنيسة المسيح لما بقيت كنيسة. اعتمادنا، أوّلاً وأخيرًا، هو على حكمة الله، المعتبرَة جهالة في هذا الدّهر. هو يرعانا في كلّ حال وطرقه ليست طرقَنا. لا يهمّ أن نفهم، المهمّ أن نقبل. "في يديك أستودع روحي"!

زبدة القول ألاّ ييأس أحدنا. إبليس آخذنا باليأس! ولكنْ متى اشتدّت ربقته علينا بات خلاصنا بيسوع أدنى! لا يؤذينّ أحدٌ نفسَه بالاستسلام للخوف واليأس والحزن والموت وفقدان الرّجاء. متى ضُيِّق الخناق عليكم "انتصبوا وارفعوا رؤوسكم لأنّ نجاتكم تقترب" (لو 21: 28)!

الصّليب ضرورةٌ، كلّ يوم، لنتجدّد. أمّا التّعزيات فيرسلها ربّنا، في أوانها، حتّى لا نخور. لكنّنا لا ننمو بالتّعزيات بل بالصّليب! بغير الصّليب يصير كلّ جديد راكدًا، ومن ثمّ منتنًا. لا بدّ من الألم والمعاناة للتّنقية والتّطهير. هذا يُثمر فرحًا على إيلامه. "اجعل ذهنك في الجحيم ولا تيأس". تمجّد الله في تدبيره الخلاصيّ!

الأرشمندريت توما (بيطار)
رئيس دير القدّيس سلوان الآثوسي – دوما
الأحد 7 تشرين الثّاني 2010